إحسان روحي
هـــادي تقوي
نويـــد كريمي

رواية عربية مهملة عن أميرة بيزنطية

ترجمة: محمد حيات

التعريف بالمقال

هذا المقال الأكاديمي عبارة عن محاولة لربط المعلومات الواردة في التاريخ البيزنطي وملاحظة مدى تناسبها مع ما ورد في قصة السيدة نرجس عليها السلام، وحادثة أسرها من بلاد الروم ومجيئها إلى سامراء لتقترن بإمامنا الحسن العسكري عليه السلام.

فهرس البحث

تمهيد..... ٥
السيرة الذاتية لـ "مليكة" ١١
حقبة حكم "القيصر" ١٥
حكام بيزنطة في الفترة الزمنية المنظورة ١٧
حكام بيزنطة في منتصف القرن التاسع ٢١
القيصر باراديس..... ٢٥
الإمبراطور والقيصر باردايس ٢٧
القيصر بارداس: الحاكم الفعلي لبيزنطة ٢٩
دليل مستقل يوثق الهوية..... ٣٣
تحقيق في هوية "مليكة" في المصادر البيزنطية.... ٣٧
إعادة النظر في تاريخانية رواية "مليكة" ٣٩

تمهيد

هذه الدراسة ضمن سلسلة مقالات تبحث سيرة السيدة نرجس عليها السلام في المصادر البيزنطية، نشرت في مجلة (Al-Masāq) تحت عنوان:

An Ignored Arabic Account of a Byzantine Royal Woman

11 Sep 2019

Hadi Taghavi, Ehsan Roohi & Navid Karimi

وقام الأستاذ الفاضل الدكتور محمد حيات بترجمته إلى العربية، مراعيًا قواعد الترجمة وذلك بعد إرجاع النصوص العربية إلى أصولها كما وردت.

ولأن النص الأصلي لم يلتزم بذكر الصلوات والتسليم على أهل البيت صلوات الله عليهم عند تكرار أسمائهم المباركة مراعاة لضوابط النشر الأكاديمي، لم نلتزم بذلك أثناء الترجمة إذ لا حاجة لهذا التقيد هنا.

كما سعى المترجم لنقل المعنى المراد من النص كما ورد دون تكلف أو إضافات ما عدا الكلام الذي يظهر بين الأقواس المستطيلة [ ] لغرض إضافة شروحه متى اقتضى الداعي له.

نبذة

رواية عربية مهملة عن أميرة بيزنطية

كان لإمرأة بيزنطية من سلالة أرســتقراطية ملكية مهامٌ مؤثرة ذات أبعاد مختلفة، ومن أجل إثــراء معلوماتنا عن هذه الأميرة البيزنطيــة كان لابد من مراجعة الإرث التاريخي والثقافي للمقاطعات المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية.

إن الهدف الرئيس لكتابة هذه الدراسة هو اقتفاء أثر هذه المرأة البيزنطية في التراث الشــيعي من خلال مراجعة النصوص المهملة التي كتبت حول ســيرة هذه الأميرة البيزنطية المجهولة حتى الآن، والتي تدعى «مليكة».

يبدو أن تواجد ســيرة «مليكة» بما تحمله من جوانب مقدســة في مصدر روائي شيعي هو الذي جعل الاهتمام بسيرتها الذاتية يغيب عن أنظار البيزنطيين القدماء. وإلى جانب شخصيتها المقدســة، فإن قصة مليكة تحمل أهمية تاريخية. لذلك، تهدف هذه الدراسة لتســليط الضوء على هوية مليكة وعلى نسبها من خلال قراءة متداخلة في المصادر التاريخية للنصوص العربية والبيزنطية.

مقدمة

يصور التاريخ النساء المنحدرات من سلالة ملكية وأرستقراطية بيزنطية بحملهن مهام واسعة ومتنوعة من الأدوار تتراوح بين التواجد في المراسيم الإمبراطورية إلى إدارة الأجنحة الخاصة بالنساء في القصر والمشاركة في إدارة شؤون الحكم، أو حتى الاستبداد المنفرد بالحكم[١].

وقد أبدى العديد من الباحثين اهتمامًا كبيرًا بحياة الإمبراطورات البيزنطيات وما يسمى بأميرات النخبة من السلالة البنفسجية (كناية عن الانتساب للسلالة الحاكمة الامبراطورية)[٢]. وقد حظيت قريناتهن الأقل مكانة في التقسيم البيزنطي باهتمام بحثي أقل على الرغم من أنهن أقرباء للعائلة الحاكمة، إلا أنهن لم ينحدرن مباشرة من السلالة البنفسجية[٣].

ومن أجل إثراء معلوماتنا عن هؤلاء الأميرات البيزنطيات، لابد إذن من مراجعة الإرث التاريخي والثقافي للمقاطعات المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية.

قد لا تشكل المجاميع الحديثية الشيعية مصدراً معلوماتياً بارزاً عن النخبة البيزنطية، إلا إنه قد تستقى القرائن ذات الصلة من مصادر غير متوقعة. ومن ثم، إن الهدف الأساسي من كتابة هذه الدراسة هو سَبر التراث الروائي الشيعي بحثاً عن سِيَر النساء البيزنطيات، وبالتحديد، اقتفاء أثر أميرة رومية مجهولة المكانة وبسيرة ذاتية منسوبة إليها وتدعى «مليكة».

على الرغم من ورود اسمها بشكل متكرر في ثلاثة مصادر إسلامية قديمة، إلا أن أقدمها وأهمها هو ما ورد في «كمال الدين وتمام النعمة» الذي صنفه الباحث الفارسي ابن بابويه[٤] (توفي ٩٩١م)[٥]، وبشكل تقريبي، فإن «مليكة» قد ظهرت لأول مرة في منتصف القرن التاسع في حرب بين العرب والروم، وقد اقتيدت

بالبدايـــة إلى بغداد قبل أن تُرحّل إلى ســـامراء (في العراق) حيث تزوجت برجل عربي نبيل وهو الإمام الحســـن العسكري عليه السلام، وهو من نسل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الحادي عشر للشيعة[٦]. وتذكر "مليكة" في سيرتها الذاتية أن نسبها يرجع إلى قيصر الروم، مع ذكر تفاصيل وصفية دقيقة عن القيصر وقصره وحاشـــيته دون الإشارة إلى اسمه.

السيرة الذاتية لـ "مليكة"

يرجع ابن بابويه الحكاية إلى بشـــر بن سليمان ثقة الهادي عليه السلام (٨٢٨-٨٦٨م) وتلميذه وجاره في سامراء، حيث طلب الإمام من بشر أن يرافقه إلى سوق النخاسين في بغداد ويبتاع له جارية رومية. وقد ذكر الإمام الهادي عليه السلام[٧] أن الفتاة قد أسرت فـــي وقعة بين الروم والعباســـيين قبل إحضارها إلى بغداد، وحين التقى بها بشـــر، عرفت الفتاة نفسها بالآتي:

"أَنَا ملَيكَةُ بِنْتُ يَشُـــوعَا بْنِ قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ وَأُمِّي مِنْ وُلْدِ الْحَوَارِيِّينَ تُنْسَبُ إِلَى وَصِيِّ الْمَسِيحِ شَمْعُونَ.

أُنَبِّئُكَ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ إِنَّ جَدِّي قَيْصَرَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَنِي مِنِ ابْنِ أَخِيهِ وَأَنَا مِنْ بَنَاتِ ثَلَاثَ عَشْـــرَةَ سَنَةً، فَجَمَعَ فِي قَصْرِهِ مِنْ نَسْـــلِ الْحَوَارِيِّينَ وَمِنَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ ثَلَاثَمِائَةِ رَجُلٍ، وَمِنْ ذَوِي الْأَخْطَارِ سَـــبْعَمِائَةِ رَجُلٍ، وَجَمَعَ مِنْ أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَقُوَّادِ الْعَسَـــاكِرِ وَنُقَبَاءِ الْجُيُوشِ وَمُلُوكِ الْعَشَـــائِرِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَأَبْرَزَ مِنْ بَهْوِ مُلْكِهِ عَرْشاً مَسُوغاً مِنْ أَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ إِلَى صَحْنِ الْقَصْرِ فَرَفَعَهُ فَوْقَ أَرْبَعِينَ مِرْقَاةً، فَلَمَّا صَعِدَ ابْنُ أَخِيهِ وَأَحْدَقَتْ بِهِ الصُّلْبَانُ وَقَامَتِ الْأَسَـــاقِفَةُ عُكَّفاً وَنُشِـــرَتْ أَسْـــفَارُ الْإِنْجِيلِ تَسَـــافَلَتِ الصُّلْبَانُ مِنَ الْأَعَالِي فَلَصِقَتْ بِـــالْأَرْضِ وَتَقَوَّضَتِ الْأَعْمِدَةُ فَانْهَارَتْ إِلَى

الْقَرَارِ وَخَرَّ الصَّاعِدُ مِنَ الْعَرْشِ مَغْشِـيّاً عَلَيْهِ، فَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُ الْأَسَـاقِفَةِ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ.

فَقَالَ كَبِيرُهُمْ لِجَدِّي: أَيُّهَا الْمَلِكُ اعْفِنَا مِنْ مُلَاقَاةِ هَذِهِ النُّحُوسِ الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ هَذَا الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ وَالْمَذْهَبِ الْمَلِكَانِي.

فَتَطَيَّرَ جَدِّي مِنْ ذَلِكَ تَطَيُّراً شَـدِيداً، وَقَالَ لِلْأَسَاقِفَةِ: أَقِيمُوا هَذِهِ الْأَعْمِدَةَ وَارْفَعُوا الصُّلْبَـانَ وَأَحْضِرُوا أَخَا هَذَا الْمُدْبَرِ الْعَاثِرِ الْمَنْكُوسِ جَدُّهُ لِأُزَوِّجَ مِنْهُ هَذِهِ الصَّبِيَّةَ فَيُدْفَعَ نُحُوسُهُ عَنْكُمْ بِسُعُودِهِ.

فَلَمَّـا فَعَلُوا ذَلِكَ حَـدَثَ عَلَى الثَّانِي مَا حَدَثَ عَلَـى الْأَوَّلِ! وَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَقَامَ جَدِّي قَيْصَرُ مُغْتَمّاً وَدَخَلَ قَصْرَهُ، وَأُرْخِيَتِ السُّتُورُ."

تروي مليكة قصتها في سـرد طويل يتضمن خروجها من القصر ومن ثم أسرها ووصولها للأراضي العربية وأخيرا لقاءها ببشـر بن سليمان، وخلال ذلك كانت مليكة تخفي هويتها وخلفيتها الملكية مقدمة نفسها باسم «نرجس»[٨].

في منتصف القرن العشـرين، كان المستشـرق دوايت دونالدسون[٩] أول من أبدى اهتماما بقصـة مليكة، فقد قام بترجمة قصتها التـي ذكرها ابن بابويه إلى الإنجليزية[١٠]. وتبعا لذلك، شـكك الباحثون بوثاقـة القصة من ناحية تاريخية، فقد وصف محمد أمين معزي رواية مليكة بأنها "أسطورة وخرافة من أساطير سير القديسين" دون أن يقدم دليلاً أو فرضية متسلسلة[١١].

وفي دراسـة أجراها مايكل دان عن حياة أمهات أئمة الشيعة، ناقش عدة مسائل تخص نرجس، جارية الإمام الحسن العسـكري عليه السلام الشهيرة[١٢]، فهو يرى بأن الدور التاريخي المحوري لنرجس في الأحداث التي أعقبت وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام صحيحة جزئياً((١٣)). بل ويدعي أن "كل الروايات التي تخص نرجس في المجاميع الشـيعية الحديثية والسـير الذاتية المنسوبة إليها هي في

الواقع قليلة الفائدة في تدعيم أي خبر يخص الحسن العسكري"[١٤]. ويرفض دان دعوى أنها من أصول رومانية، كما يجزم بعدم وجود ما يثبت أصول السيدة نرجس[١٥].

ومن بين البحوث التي أجريت حول انتساب «مليكة» ربما يكون أبرزها بحث كمال السيد، خلافاً لكل أقرانه، يفترض السيد صحة الرواية عن «مليكة»، إذ يفترض السيد أن جد «مليكة» هو القيصر «باراداس»، بيد أن دعواه لا تتعدى كونها جزما فرضيا لم يدعمه بشواهد تاريخية للقارئ[١٦].

لم يكن تواجد أميرة بيزنطية في مقاطعة مجاورة أمراً جديداً في تاريخ الإمبراطورية، فقد قامت الأسرة الملكية في الدولة البيزنطية بعقد مصاهرات مع الأسر الحاكمة في الإمبراطوريات المجاورة بهدف التحالف، إما لتأكيد العلاقات الحميمية مع الحكام الآخرين، أو كوسيلة غير حربية لتوسعة نطاق سيطرة الدولة البيزنطية[١٧].

لقد سافرت أكثر من امرأة من نساء البلاط الإمبراطوري إلى الخارج، لكن وجود سيرة «مليكة» وبثها في مصدر روائي شيعي يشكل خصوصية وصدمة، إذ من الطبيعي أن تجد حضوراً بارزاً عن الدولة البيزنطية في مصدر تأريخي عربي، لا في مصادر دينية[١٨]، وربما لهذا السبب غاب عن البيزنطيين القدماء إدراك الأهمية التاريخية المحتملة لسيرتها. كما أن وجود جوانب ذات طابع إعجازي ومقدس هي الأخرى قد أضفت خصوصية على شخصيتها، ولكونه بعيدا عن السرد التاريخي المألوف، فإن سيرة «مليكة» واضحة في غرابتها، وهي مختلفة عن الروايات العربية الأخرى المعنية بالشؤون البيزنطية، وبناء عليه، يصبح من الطبيعي أن يرفض بعض الباحثين المعاصرين تفاصيلها بحجة أن سيرتها «خرافية وأسطورية».

ولا يجب أن تثنينا السمة القدسية لهذه الشخصية عن البحث، إذ أنه من المجدي أن نحاول تجاوز التفاصيل الجدلية في هذه الشخصية لنستخلص بعض التفاصيل التاريخية المشتملة فيها، فبالنتيجة، وجود دوافع أدبية وغير تاريخية في المصدر لا يلزم عنه اعتبار كل تفصيل من تفاصيله ابتداعاً[١٩].

ما يبرر رغبتنا في استظهار البيانات التاريخية من خلال سيرة هذه الشخصية المقدسة هو الانسجام الملفت مع تقارير الشؤون الداخلية للدولة البيزنطية والذي يستبعد أن يكون انسجاماً اعتباطياً. وفي الحقيقة إن تحليلنا لهذه الشخصية قد يشغل مكانة مهمة، فقد أجري مع وعينا بطبيعتها المقدسة المتضمنة في الرواية. تقدم «مليكة» وصفاً مفصلاً عن حياتها وعن حياة جدها، مما ترتب عليه ضرورة إجراء دراسة نصية متداخلة وموسعة بين المصادر التاريخية العربية والبيزنطية من أجل إثبات أو إبطال شهادتها[٢٠].

وبناء على وجود إيحاءات تاريخية تكتنف سيرة «مليكة» من جهة، وبناء على تراجم الحكام البيزنطيين وثيقي الصلة من الفترة ٨٤٠ وحتى ٨٦٧م[٢١] من جهة أخرى، تلقي هذه الدراسة الضوء على هوية «مليكة» وجدها، منطلقين من تعريف «مليكة» بجدها على أنه أحد نبلاء بيزنطة في القرن التاسع، هذا التعريف الذي يشكل نواة لاستظهار الحقائق التاريخية من شهادتها.

حقبة حكم "القيصر"

تنتهي الأحـــداث في روية «مليكة» عند عملية أســـرها، عند وصولها إلى الإمام الهادي عليه السلام في ســـامراء وزواجها من ابنه الحسن العسكري عليه السلام، لذلك، تعطي مســـيرة الهادي عليه السلام في ســـامراء انطباعاً جيداً لفترة حكم القيصـــر، فقد أقام في «المدينة» في بداية حياته، ومن ثم اقتيد قســـراً إلى سامراء في سنة ٨٤٧م بأمر من الخليفة العباسي المتوكل فارضاً عليه الرقابة المشددة، عاش فيها ما تبقى من حياته حتى مات في سنة ٨٦٨م[٢٢]، ويشكل هذا التاريخ آخر التوقعات المرصودة لبداية عهد حكم القيصر.

بمعنـــى آخر، يحتمل أن يكـــون أحد حكام بيزنطة في الفتـــرة ما بين ٨٤٨م إلى ٨٦٨م أن يكون هو المقصود كجد لـ«مليكة». إلا أننا قد نتساءل مدفوعين باحتمال وارد عن سبب حصر الفترة في هذه العشرين سنة دون زيادة، كأن تمتد الفترة لتبلغ ٢٨ ســـنة (٨٤٠م وحتى ٨٦٨م) لافتراض أن «مليكة» قد غادرت القصر لأول مرة قبل وصولها إلى سامراء بعدة ســـنوات. ومع التسامح في قبول التسلسل التاريخي الدقيق في مصادرنا وفرض طول المســـافة التي قطعتها «مليكة» من القسطنطينية إلى الأراضي العربية، يمكننا افتراض أن فترة حكم القيصر قد ســـبقت ورود الإمام

الهادي عليه السلام إلى سامراء (٨٤٨م) بفترة وجيزة، مما يوفر لنا مساحة متسعة للتعرف على هوية القيصر[٢٣].

حكام بيزنطة في الفترة الزمنية المنظورة

تطلق ثلاث تسميات في مصادرنا العربية تخص جد مليكة: «قيصر»[٢٤]، «ملك الـــروم»[٢٥]، و»قيصر ملك الـــروم»[٢٦].إن اللقب الثالث الـــذي صدرت به مليكة روايتهـــا لا يقابله لقبا بيزنطيا محددا، وما يعزز هذا الادعاء هو أن لفظتي "ملك" و "قيصر" هما في الواقع لقبان منفصلان يترجمان بالترتيب «الإمبراطور» و»قيصر»، فالأول هو لقب منحصر في الحاكم الأعلـــى للدولة البيزنطية، بينما اللقب الثاني يعطى عادة للخليفة المحتمل للإمبراطور[٢٧]، ولا يستبعد احتمال أن يكون السبب وراء هذا الالتباس في تحديد رتبة جـــد «مليكة» راجع إلى الرواة المتأخرين، فإن ســـيرة «مليكة»، وعلى فرض صحتها التاريخية، قد تـــم تقديمها كما هي للعرب الذين نشـــأ عندهم هذا الالتباس؛ ومع ذلك وبإلقاء نظـــرة على المصادر العربية في العصور الوسطى، يتجلى اســـتخدامهم مصطلح «قيصر ملك الروم» كمرادف مع «ملك» أو «الامبراطور»[٢٨]، وقد يرجع الســـبب إلى هذا الاستخدام إلى إلمام العرب بقوانين التواصل الإداري والعسكري مع الدولة البيزنطية أو ربما لأن حاكما بيزنطيا قد استخدم هذين اللفظين كمترادفين.

بغض النظر عن الســـبب، فإن الكتـــاب العرب في العصور الوســـطى لم يفرقوا

بينهمـــا، وبناء على ذلـــك، فإننا نذهب إلى أن جد «مليكـــة» قد يكون في طبقة الحكام للدولة البيزنطية في هذه الفترة.

تصور «مليكة» جدها في روايتها على أنه ذو ســـلطة وصلاحيات عظيمة، وهو وصف يشـــير إلى أنه قد يكون إمبراطور الدولة البيزنطية. ومع ذلك، ولأســـباب ستتضح لاحقا، كان ولاة العهد الروم في منتصف القرن التاسع يطلق عليهم لقب «قيصر ملك الروم».

إن رواية «مليكة» تقدم عدة شـــرائط تساهم في تشـــكيل هوية جدها، وأكثرها أهمية هي الشرائط التالية:

توجد للقيصر حفيدة[٢٩] في ســـن التزويج، وهـــذا متطلب فريد بحيث يقصي غالبية المرشـــحين لانطباق رواية مليكة عليه كما سنرى. ولكن من أجل أن تكون عملية تحديد هوية القيصر أكثر اعتبـــارا، لابد من التأمل في عدة حقائق. إذ من المفترض أن أســـماء وســـير نســـل الإمبراطور موثقة عند المؤرخين، لكن الأمر ليس كذلك بالنســـبة لمعظم الوجهاء في بلاط الحكم. فلو استثنينا أولئك الذين كانت لهم أدوار عسكرية أو إدارية مشهودة، فإن حياة أولاد وأحفاد القياصرة الروم مجهولة لدينا، إذ من المحتمل أن يكون هناك ذكر عابر لبعض الأمراء والأميرات أو أن الداعي لتخليدهم في صفحات التاريخ متعذر. لذلك، من المناسب ألا يتم الاقتصار على هذا الشـــرط (أن تكون للقيصر حفيدة في سن الزواج) ولابد من ضم عدة شرائط وردت في رواية «مليكة» لتحديد هوية جدها.

كان للقيصر أخ وابن أخ، ويفترض أن تكون لأخيه مكانة مدنية أو عسكرية عليا من بين الحاشية.

لعب القيصر بنفسه دورا عسكريا في الحملات ضد العرب[٣٠].

كان القيصـــر شـــغوفاً بالتعليم والبحث، فأثناء الحوار بين بشـــر بن ســـليمان

و»مليكة» في سوق النخاسين ببغداد، سألها عن السر وراء إتقانها اللغة العربية فهما ومحادثة، فكان جوابها: «بَلَغَ مِنْ وُلُوعِ جَدِّي وَحَمْلِهِ إِيَّايَ عَلَى تَعَلُّمِ الآدَابِ أَنْ أَوْعَزَ إِلَيَّ امْرَأَةَ تَرْجُمَانٍ لَهُ فِي الِاخْتِلَافِ إِلَيَّ، فَكَانَتْ تَقْصِدُنِي صَبَاحاً وَمَسَاءً وَتُفِيدُنِي الْعَرَبِيَّةَ حَتَّى اسْتَمَرَّ عَلَيْهَا لِسَانِي وَاسْتَقَامَ»[٣١].

بتسلسل زمني واضح، نقدم تحليلاً مقارناً مقتضباً عن حياة بعض أباطرة الروم والقياصرة [ولاة العهد المحتملين].

حكام بيزنطة في منتصف القرن التاسع

ثيوفيلـــوس (توفي في ٨٤٢م) هو أول حاكم يقع في الفترة الزمنية التي حددناها، وإن أكثر ما قد يشـــد نظر المتابع في استطلاعنا الاســـتقرائي هو شغف ثيوفيلوس بالدراســـات المدنية، فقد تلقـــى تعليمه على يد النحوي جون الســـابع (بطريرك القسطنطينية ٨٣٧-٨٤٢م)[٣٢] وكان معجباً بدراسات الحضارة والفن[٣٣].

وبالرغم من التشـــابه الظاهر بيـــن ثيوفيلوس وصفة جد «مليكـــة»، إلا أن هناك اختلافاً محورياً يقلص من احتمالية انطباق الصفة عليه، فتاريخ ثيوفيلوس وأسرته موثقة جيدا لنا، فقد توفي في العشـــرين من شـــهر يناير لسنة ٨٤٢م عن عمر يناهز الثلاثين[٣٤]، وكان عمر ابنه ميخائيل الثالث ثلاثة سنوات[٣٥]، أي أنه لم يكن ليصل ســـن الزواج فضلا عن أن تكون له ابنة في ســـن التزويج. لذلك، يستبعد أن يكون ثيوفيلوس هو المقصود في رواية «مليكة».

خلف ميخائيل الثالث أباه ثيوفيلوس امبراطورا للدولة البيزنطية في نفس الســـنة، وقد كانت والدته ثيودورا ووزيرها المقرب ثيوكتيســـتوس يديران شؤون الدولة باسم ميخائيل حتى بلغ أشده ليمارس صلاحياته بنفسه[٣٦].

لقد أقدم باسل المقدوني على إنهاء آخر حقبة للحكام العموريين (نسبة إلى عمورية) بتخطيطه وتنفيذه عملية اغتيال الحاكم[٣٧].

وكما ورد في رواية ابن بابويه أنه حين عزم جد «مليكة» على تزويجها، كانت تبلغ من العمر قرابة ثلاثة عشرة عاما، وهذا أيضا يدفع القول بانطباق صفة جد «مليكة» على ميخائيل الثالث، فلم يروَ أنه قد كانت له حفيدة أو ابن أخ متزوج من ابنة من ذريته. وعليه، فإن وفاة ميخائيل السابق لأوانه في سن السابعة والعشرين مضافا إلى انعدام الذرية من زوجته «إيدوكياديكا بوليتيسا» يجعلانه مستبعدا من أن يكون موافقا لمواصفات جد «مليكة»[٣٨].

لقد غطت حقبة ميخائيل الثالث عهدا طويلا من الفترة التي قررناها مسبقا للدراسة، فقد امتدت هذه الفترة لتشمل نكبة العائلة العمورية وسلبهم عرشهم على يد باسل المقدوني[٣٩].

كان لباسل أربعة أبناء: أكبرهم قسطنطين، وليو، ستيفن وألكساندر. لا نعلم سنة ميلاد قسطنطين[٤٠]، لكن المصادر تشير إلى أنه تزامن وصوله إلى سن مناسب الزواج مع اعتلاء والده العرش، وقد ورد أنه في سنة ٨٦٨م قد قرر توطيد علاقته بحاكم إيطاليا «لويس الثاني» -والتي لم تنجح- عبر تزويج ابنه قسطنطين من ابنة لويس[٤١]. ومن المؤكد أن قسطنطين لم يكن والدا لابنة تبلغ ثلاثة عشرة سنة في سنة ٨٦٨م((٤٢))، مما يستبعد أن تنطبق مواصفات جد «مليكة» على باسل.

لقد أصبح من الواضح الآن أنه لا أحد من الأباطرة المذكورين في الحقبة التي حددناها تنطبق عليه مواصفات الجد في الرواية التي وردت عن «مليكة». تتجه أنظارنا إذن إلى القياصرة في الفترة الزمنية التي حددناها[٤٣]، لنخلص إلى أنه لم يكن هناك إلا قيصران في منتصف القرن التاسع: القيصر أليكسوس موسيلي

والقيصر بارداس. ومن الراجح استبعاد الأول نظرا لأن زواجه من ماريا، التي يعتقد أنها الابنة الصغرى من بنات القيصر ثيوفيلوس الخمسة، لم ينتج عنه إنجاب[٤٤]. لم يتبقَ لدينا سوى مرشح واحد في الفترة المنظورة: بارداس.

القيصر باراديس

امتد عهده من (من ٨٥٦ إلى ٨٦٦م)

يعرف عادة بـ»القيصر بارداس" أو "القيصر"، وقد ولد لأسرة أرمينية في بافلاغونيا في سنة ٨٠٠ تقريبا, وهو أخ الإمبراطورة ثيودورا وباتريكيوس بيتروناس[٤٥]. ولقد عاش في عهد ثلاثة حكام: مايكل الثاني، ثيوفيلوس، ومايكل الثالث، ولم يحصل على الفرصة لإبراز قدراته إلا في عهد مايكل الثالث. وقد قرر ثيوفيلوس أن يعينه إلى جانب كل من الأستاذ مانويل والمتولي للشؤون الإدارية ثيوكتيتوس كوزراء لثيودورا بعد وفاته[٤٦]. ويشار إلى بارداس في المصادر أنه لعب دورا نشطا في إحياء ذكر الشخصيات الراحلة[٤٧]، ولم يدم الأمر طويلا حتى اتهمه متولي الشؤون الإدارية بالخيانة، ممهدا الطريق لنفيه[٤٨]. استمر نفيه حتى بلغ مايكل الثالث سن الرشد وبدأ يعيد النظر في الصلاحيات الممنوحة لوالدته ووزيرها المقرب، وقد أقنعه داميانوس (كبير الحجاب) بأن يعيد خاله إلى القصر من المنفى[٤٩]. تم إعطاء بارداس لاحقا رتبة «معلم» وشغل منصب المشرف على مدارس الدولة كافة ومنح لقب قربيلاط (Kuropalates)، وقد أعلن عن تنصيبه قيصرا في سنة ٨٦٢م.[٥٠]

وقد أحكم سـيطرته ونفوذه بتعيين ابنه الأول مشـرفا على مدارس الدولة والآخر قائدا مسؤولا للشؤون الغربية[٥١].

.

الإمبراطور والقيصر باردايس

نظرة مقارنة في السيرة المنقولة

مع أن بارداس قد تزوج مرتيــن، إلا أننا نملك القليل من المعلومات عن زوجته الأولى والتي أنجب منها ابنا لا نعرف اســمه. كما أنه قد رزق بابنه أنتيغونوس وابنته آيرين من هذا الزواج[٥٢]. ثم تزوج للمرة الثانية في ســنة ٨٥٥ من ثيودوسيا وتطلقا سنة ٨٦٢م.[٥٣] ومن المعلوم أن ابن بارداس من زوجته الأولى، والمرجح أنه الأكبر، قد كان متزوجاً في ســنة ٨٥٧م، مما يعزز من احتمالية وجود حفيدة لبارداس في ســن الزواج.[٥٤] وبما أن أنتيغونوس لم يكن ســوى مراهق في الفترة الزمنية التي حددناها، وبذلك يســتبعد أن يكون والدا لابنة بعمر ثلاث عشرة سنة،[٥٥] فإنه من المرجح أن يكون ابن بارداس الأكبر الذي نملك عنه معلومات شــحيحة هو والد «مليكة».[٥٦] وكما ذكرنا أعلاه، يمكن تصور وجود ابنة لولد بارداس الأكبر والذي كان ضابطا ذا رتبة عالية لكن المؤرخين قد أغفلوا ذكره.

ذكر في التاريخ أن لبارداس أخا اســمه بتروناس وأن للأخير ابنا اسمه ماريانوس. كان بتروناس قائدا أعلى للقوات المســلحة للفتــرة مابين ٨٦٠م وحتى ٨٦٣م[٥٧] حيــث قاد القوات البيزنطية في عدة غارات أهمها معركة بوســون.[٥٨] وبالرغم من

غياب الدليل المباشر على ذلك، إلا أنه من غير المستبعد أن يكون بارداس قد قرر تزويج حفيدته من ابن بتروناس.[٥٩] تظهر التفاصيل الدقيقة انسجاما ملفتا يزيد من احتمالية كون بارداس هو ذاته القيصر، وكيفما يكن، فإن الفرضية المقدمة هنا مبدئية وناقصة. ولابد من التأكيد أن الهدف من ذكر معلومات من السيرة الذاتية ليس لأجل حسم مشكلة تحديد هوية القيصر، وإنما من أجل تمهيد الطريق نحو تحديد هويته بصورة منطقية، فمن المؤكد أننا نحتاج إلى أدلة إضافية لندعم هذه الفرضية. يجب علينا بالتالي متابعة مدى تطابق سيرة القيصر بارداس مع رواية «مليكة»، وسيتم بعد ذلك تقديم دليل مستقل يدعم هذه الفرضية.

القيصر بارداس: الحاكم الفعلي لبيزنطة

قدمت «مليكة» جدها باستخدام اللقب المبهم نسبيا «قيصر ملك الروم» والذي يعــرف به كل من أباطرة وقياصرة الروم، لذلك فمن المرجح أن تكون كلماتها التي نطقت به تحديدا قد تعرضت للتصحيف أثناء عملية نقلها، على ســبيل المثال، قد يكون من نقل الكلام الذي تلفظت به «مليكة» إلى ابن بابويه قد غير كلمة «قيصر» إلى «قيصر ملك الروم». هناك تفســير آخر ممكن قوامــه أن إطلاق لقب «قيصر ملك الروم» أو «ملك الروم» على بارداس منسجم تماما مع المصادر البيزنطية في تصويرهــا القيصر بارداس بأنه لو لم يكن الحاكــم المتوج علنا فإنه -على الأقل- الحاكــم الفعلي للإمبراطورية البيزنطية. لو تأملنا في حقبة حكم ميخائيل الثالث، ســتتضح أمامنا الصورة أكثر: لقد استعان الفتى المراهق الذي كانت الإمبراطورية طوع أمره بخاله بارداس ليعاونه فــي الفترة الثانية من حكمه (٨٥٦-٨٦٦م)، ففي هذا الوقت، قد لا يُتصور أن ميخائيل ذا الســتة عشرة ســنة يملك النضج الكافي ليحكم واحدة من أعتى الإمبراطوريات وأكثرها تطورا حينها.[٦٠]

لقد قام الطبري بتوثيق سلطة بارداس بدقة حين قام بتوثيق إرسال نصر بن الأزهر

من قبل الخليفة العباسي المتوكل ليفاوضه على قضية تبادل السجناء، يقول نصر بن الأزهر:

"لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك [الإمبراطور] بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي، فجرت بيني وبين خال الملك بطرناس [تنبيه: في نص الطبري ذكر بطرناس وفي الترجمة إلى الإنجليزية كتبت: بتروناس] المناظرة، وهو القيم بشأن الملك»

وفي موضع آخر، ينسب إلى ابن الأزهر قوله:

"فاستحلفت خاله [أي طلب منه أن يحلف ليطمئن من صدق النوايا في تبادل الأسرى]، فحلف عن ميخائيل [أي: حلف خال الإمبراطور عن الإمبراطور]. فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك، فهذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم. ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه: نعم أو لا، وليس يتكلم وخاله المدبر أمره»[٦١]

بحكم عمله قائداً أعلى للقوات المسلحة،[٦٢] كان بتروناس مسؤولًا عن الأعمال العسكرية لا الإدارية في الإمبراطورية،[٦٣] إذ يستبعد أن يكون قد لعب دوراً هاماً في استقبال السفراء. على إثر ذلك، يعتقد بيري -وهو الذي درس تاريخ الأسرة العمورية بتمعن- أن الشخص الذي أشار نصر إليه بالخال هو بارداس نفسه، وليس بتروناس: «أظن أن نصرا قد كتب (خاله) وأضاف الطبري (بتروناس).[٦٤] ويشاركه كريمر في تبني هذا الرأي مشددا أن القيصر بارداس «يمثل عمليا السلطة العليا في الدولة».[٦٥]

كما أنه يوجد دليل آخر يشير إلى قوة سلطة بارداس مذكور في رسائل فوتيوس، فبعد وفاة القيصر بارداس، كتب فوتيوس إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث مهنئا إياه على نجاته من مؤامرات أعدائه، وقد وُصف بارداس في هذه الرسالة بأنه أحد

المشـــاركين فعليا في إدارة الحكم «لقد فقد كل شـــيء الآن إلا اسمه»[٦٦] وهذا يعزز الفرضية القائلة بأن القيصر باراداس لم يكن فقط مســـؤولا عن إدارة شـــؤون الإمبراطورية، ولكن فعليا كان يمارس مهام الإمبراطور.

لقد أشـــير في المصادر البيزنطية الحديثة إلى المهام الوظيفية التي كان يشغلها القيصر باراداس كإمبراطور خـــلال عقد كامل -وهي مدة إدارته-، حيث ذكر بأن فترة العشر سنوات التي قضاها حاكما فعليا تعد من أنجح الفترات في تاريخ الدولة البيزنطية.[٦٧] بعد قبول الفرضية التي تشـــير إلى أن باراداس هو جد «مليكة»، فإن تقديم «مليكة» نفسها بأنها حفيدة الملك (RomanEmperor) يتماشى مع ما ورد في المصادر البيزنطية.

قائد كل القوات

إن الروايات التاريخية التي تنقل إنجازات باراداس العســـكرية تعزز من مقبولية فكرة كونه القيصر، ففي بيانها حول أســـرها على يد المســـلمين، تذكر «مليكة» معلومات هامة عن ســـلطة جدها العســـكرية، فالقيصر هو الذي ســـيّر الجيش لملاقاة المسلمين، وهذا يشير بحتمية كون جدها ذا مكانة في القيادة العسكرية البيزنطيـــة، ووفق المصـــادر البيزنطية، فـــإن القيصر بـــاراداس كان يتمتع بهذه المكانة فعلا. وبصفته قائداً عاماً للقوات المســـلحة،[٦٨] كان باراداس مسؤولًا عن الحدود الشـــرقية والغربية للإمبراطورية، محققا عدة انتصارات على العرب،[٦٩] وبفضل تدخلاته السياســـية من موقع أعلى الهـــرم[٧٠] في الجهة الغربية، عززت الدولـــة البيزنطية من حجم تأثيرها على بلغاريـــا وموارفيا حتى دخلوا في الديانة المسيحية.[٧١]

كان شغوفاً بالتعلم وبتقديم الراعية العلمية

تظهر المصادر البيزنطية أوجه شـــبه ملفتة للنظر بين «قيصر ملك الروم» وبين «القيصـــر بارداس"، ومنها التعطـــش للتعلم وتقديم الرعاية الدراســـية، فقد قام بتكليف امرأة (ترجمانة) لتتكفل بتعليم "مليكة" اللغة العربية[٧٢] حين بلغت سن الثالثة عشرة، وكان الدافع وراء اهتمام القيصر بتعليم «مليكة» لغة ثانية راجع إلى ولعه بالتعليم. علاوة على ذلك، كان بارداس يحب أن يشـــتهر بسمة المتحمس للتعليم، فقد ســـاهم بصورة مؤثرة في إحياء العلوم المدنية عبر تجديد المدرسة الإمبراطورية المشـــهورة بـ «ماغنوارا Magnuara"[٧٣] والظهور كراعي للعلماء من أمثال فوتيوس والرياضي ليو.[٧٤]

للتنبيه: قد يبدو غريبا قيام القيصر بتكليف امرأة لتعليم حفيدته، إذ يتوقع المرء أن يجد في هذه الرواية إشـــارة لكونها تتعلم اليونانية بدلا من العربية، ومع هذا، فإن ما يثير انتباهنا حقيقة هو ولع القيصر بالتشجيع على التعليم، وليس الاهتمام المدعـــى باللغـــة العربية لامرأة بيزنطية مـــن طبقة النخبـــة. إن إحاطة «مليكة» بلغة ســـيدها الجديد «الحسن العسكري عليه السلام" تشـــكل محورا هاما في السردية الإعجازية ولا تتعارض مع وجود أصل للرواية.

دليل مستقل يوثق الهوية

هناك ما يدعم كون بارداس هو نفسه جد «مليكة»، ففي الهداية الكبرى للحسين بن حمدان الخصيبي (توفي في ٩٥٧م) الذي يقدر أنه كتب في منتصف القرن العاشر، توجد رواية تسلط ضوءًا ساطعاً على هوية هذا القيصر المجهول. يشتمل الكتاب على أحاديث عقائدية كما يشتمل على أحاديث تاريخية عن النبي محمد ﷺ وعن الأئمة الإثني عشر عليهم السلام [٧٥]، وبالرغم من كونه زعيما للنصيرية، وهي فرقة من غلاة الشيعة قد انشقت عن الأكثرية الإثني عشرية، فقد كتب الخصيبي الهداية بناء على الرؤية الشيعية.[٧٦] حين توفي الإمام الحادي عشر الحسن العسكري عليه السلام، واجهت الشيعة أزمة خلافة لم يكن يتوقعونها[٧٧]، وفي التفاعل مع هذه المشكلة، كتب الخصيبي:

"[بعد وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام] سعى [جعفر الكذاب[٧٨]] بجارية أخيه الحسن بن علي عليهما السلام إلى السلطان وقال له: إن أخي توفي ولم يكن له ولد، وإنما خلّف حملا في بطن جاريته نرجس، وأخذت هي ووراس الكتابية جاريتا الحسن بن علي عليهما السلام من داره .. وحبستا سنتين فلم يصح على نرجس ما ادعى عليها ولا غيرها فأطلقتا"[٧٩]

مما يشـــد الانتباه هو وجود جارية كتابية عند الحســـن [العسكري عليه السلام]، فمن الممكن أن تكون قد تحولت عن المســـيحية، بل وما يثير الانتباه أيضا هو اسمها "ورداس" وهذا الاسم هو صيغة هجائية للهجة أخرى لاسم "بارداس"، ولا مجال للصدفة هنا. ولابد من التأكيد هنا على أن المؤلفين لا يعرفون لهذا الاسم معنى مذكورًا في المصادر الشـــيعية بحسب تتبعهم، لكنه شـــائع بين أوساط الشعوب اليونانية في الدولة البيزنطية في العصور الوسطى (من القرن الثامن وحتى الثاني عشر)، واســـم «بارداس» له جذور أرمينية.[٨٠] وعلى ذلك، يمكن لنا أن نستنتج بأن الجارية التي كانت في بيت العسكري هي فتاة بيزنطية من جذور أرمينية.

تتبقى شبهة رئيســـية لم يلتفت إليها: لماذا تحمل جارية العسكري اسما مذكرا «بارداس»؟

في القرنين الثامن والتاســـع، كانت عوائل النخبة في بيزنطة تتلقب باسم الأب أو الجد -ولو كان الأبعد- خصوصا لو كان يتمتع بســـمعة جيدة.[٨١] على سبيل المثال، فـــإن «يودوكيا إنجرينا» هـــي ابنة «إنجر» الذي كان فردا من أســـرة من النبلاء[٨٢]، ومثل عائلة مارتيناكوسا لذي نال شهرته بسبب ميوله المتمردة[٨٣] فإن أفرادا من عائلته يتلقبون باســـمه. وعلى هذا الأساس، يصبح التفسير الأقرب وراء تسمية جارية العسكري بـ «ورداس» هو أنها في الحقيقة كانت تحمل اسم جدها الأكبـــر المعروف بـ»القيصر بـــارداس»، فإن وجـــود «ورداس» كإحدى الخدم في دار العســـكري، مضافا لكونها كتابية -كإشارة واضحة لجذورها المسيحية- يؤكدان أن بارداس هو ذاته القيصر المذكور في الرواية.[٨٤]

من الجدير بالذكر أنه وردت عدة أســـماء لجارية العسكري البيزنطية في الآثار الشيعية: «مليكة»، «نرجس»، «صقيل»، «سوسن» و»ريحانة».[٨٥] بالنظر للرواية المنقولة عن بشر بن سليمان فإنها كانت تدعى «نرجس» في سوق النخاسة، وهو

اســـم مشـــهور في عدة روايات، وبالإضافة إلى ذلك، فإنها هي من أطلقت اسم «مليكة» على نفســـها، والغموض الذي يكتنف اسمها مرتبط بالأحوال السياسية التي عاشها الحســـن العسكري عليه السلام، فقد عاش فيما يشـــبه الإقامة الجبرية في معظم فترات حياته.[٨٦] تذكر المصادر الشـــيعية أن عامل الخليفة العباســـي كان شديد الاهتمام بمعرفة خليفة العســـكري عليه السلام، فقد كان يعتزم قتل أي طفل من جواري الإمام عليه السلام من المرشـــحين لتولي منصب الإمامة من بعده.[٨٧] لقد ذكر كل من الكليني وابن بابويه والخصيبي أنه بعد وفاة العسكري عليه السلام، قام المعتمد باحتجاز جاريته، وفي رواية أخرى جاريتيه، متفقدا من يشتبه أنها حبلى.[٨٨]

لابد هنا مـــن التأمل في الخـــلاف المرير بين العســـكري عليه السلام وأخيه جعفر، فبالرغم من رفضه من قبل المجتمع الشيعي، إلا أن جعفرا قد ادعى الإمامة لنفسه بعـــد وفاة والدهما الهادي عليه السلام.[٨٩] ومن أجل تقوية حظوظه في خلافة أخيه بعد وفاته، قام جعفر بتســـليم جارية أخيه للعباسيين. ولأسباب متباينة عن التي لدى العباســـيين، كان جعفر قلقا من احتمالية وجود ذرية لأخيه العســـكري عليه السلام قد تنافســـه في دعواه الخلافة، فمن غير المستغرب في ظل هذه الأجواء المتوترة أن يخفي الحسن العسكري عليه السلام هوية جاريته البيزنطية ذات الشأن المرموق كما هو الحال مع «مليكة» أو «نرجس». ومن أجل تحقيق ذلك، نســـبت أسماء مختلفة إلى «مليكة»، وفي بعض الأحيان كان يطلق على غيرها من الجواري المغمورات اســـم «مليكة» أو «نرجس»، وقد رأينا مسبقا كيف قامت «مليكة» بإخفاء اسمها عن تاجر الرقيق عمر بن يزيد، مما يشير إلى أنها كانت تحاول إخفاء هويتها.[٩٠]

ومـــن المقبول أن يكـــون الوضع كما ذكرنا، فمع وضعه فـــي الاعتبار، يصبح من غير المســـتغرب قيام الخصيبي بالتمييز بين «نرجس» و«ورداس الكتابية» رغم كونهما شخصية واحدة.

قبل أن نكمل في استعراض الدليل الذي يشير إلى أن القيصر بارداس هو جد «مليكة»، لابد من التنويه على أهمية الخصيبي وكتابه الهداية. نظرا لأنه الكتاب الوحيد الواصل إلينا عن الخصيبي كما هو ادعاء الشيعة -على عكس ادعاء النصيرية- يتضمن الهداية مادة هامة عن تلك الفترة، ومع ذلك، إلا أن هناك جدلاً كبيراً بين علماء الشيعة حول درجة مصداقية أعمال الخصيبي. فقد وصفه النجاشي -وهو عالم رجال شيعي معروف- بأنه «فاسد المذهب»، بينما وثقه المجلسي.[٩١] ترجع هذه الاختلافات لأسباب اعتقادية، لكننا لسنا معنيين بالميول الدينية للخصيبي وكذلك لا تدخل الجدليات النصيرية ضمن دائرة بحثنا الراهن. ما يعنينا الآن هو وثاقة روايات الخصيبي التاريخية فضلا عن العقائدية وذلك لأنه شبه منفرد باحتفاظه بمادة تاريخية ضخمة عن «نرجس» وكذلك عن الإمامين الحادي عشر والثاني عشر عليهما السلام. بصرف النظر عن حديثه الذي ذكرناه بشأن «ورداس الكتابية»، فإن ما يهمنا بشكل خاص هو ما ذكره في كتابه الهداية في مدخل حديثه عن الإمامين الحادي عشر والثاني عشر عليهما السلام، وبفضل وجود الإسناد، وهو عبارة عن مجموعة من الرواة يسبق ذكرهم الحديث، يمكننا أن نعرف من أين أتت أخبار الخصيبي، وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصادر أخبار الخصيبي بالنسبة للإمامين المذكورين تأتي من نفس تلامذتهما، لذلك، فإنهم معاصرون -إن لم يكونوا شهودا- للأحداث التي يصفونها. إن شيوخ الخصيبي [أساتذته] هم من نقلوا بعض الأخبار الهامة عن «نرجس»[٩٢]، كأحد الأحاديث الهامة الذي رواها كثر من خمسين تلميذا من سكان سامراء (كانوا بأجمعهم مجاورين للإمامين أبي الحسن وأبي محمد عليهما السلام)[٩٣]. نظرا لتوتر الأجواء في عاصمة العباسيين العسكرية «سامراء»، يعتقد إذن أن نقلة هذه الأخبار هم من خلّص تلاميذ الأئمة ومصدراً للمعلومات الهامة [٩٤]، فعلى سبيل المثال على

هذه الأخبار الهامة هو تداول الخبر السابق عن «ورداس الكتابية» بين أوساط الدائرة المقربة من العسكري عليه السلام.

تحقيق في هوية "مليكة" في المصادر البيزنطية

يعتبــر إهمال ذكر الأميــرة البيزنطية التي تغادر بلدها «ســمة تمثل نظرة الدولة البيزنطيــة للعالم» كما حصــل مع الإمبراطــورة ثيوفانو زوجــة الإمبراطور أوتو الثاني.[٩٥] وبالمثل، قد يتوقع تغييب ذكــر «مليكة» في المصادر البيزنطية. وهناك احتمال أن الاســم المبهم «مليكة» ليس اسما لجارية العســكري وإنما هو لقبها الملكي، يمكن ترجمة عبارة «أنا مليكــة» إلى «I am a princess»[٩٦]، ويقودنا لهذا الفهم حقيقة أن اســم «مليكة» وبقية الأسماء التي ارتبطت بها في النصوص العربية لم تكن دارجة في الدولة البيزنطية بين الأوســاط النسائية الأرستقراطية في القرن التاســع.[٩٧] وبادئ ذي بدء، من الصعب -إن لم يكن مســتحيلا- أن نجد شخصية بيزنطية اســمها «مليكة». ومع ذلك، فقد أتينا على دليل جدير بالاهتمام وهو خاتم من الرصاص يرجع إلى القرن التاسع، ويبدو انطباق صفة مالكته آنذاك «ماريــا" مع "مليكة". فقــد كان نقش الخاتــم: "Θεοτόκε βοήθει τῇσῇ δούλῃ Μαρίᾳ θυγατρὶ τοῦ Καίσαρος" أي: "ثيوتوكــوس [أم الإله] أغيثــي أمَتُكِ ماريا ابنة القيصر».[٩٨] فبينما توصــف «ماريا" بأنها ابنة القيصر، لم تكن لأي من القياصرة البيزنطيين في القرن التاســع -لا أليكسيوس ولا بارداس-

ابنة اســمها «ماريا". وقد يفترض أن القيصر بــارداس هو المقصود بـ»القيصر» المنقــوش على الخاتــم،[٩٩] وحتى لو كان هذا الافتراض أوليًّــا، إلا أنه احتمال معقول، فـ أليكســيوس لم يعقب من زواجه، وسننظر الآن في الأدلة المؤيدة في كون «ماريا" من نسل بارداس.

وُصفت مارية في الخاتم بأنها «ابنة القيصر»، وفي المقابل، فإن «مليكة» تصف نفسها تارة بأن القيصر جدها، وتارة بأنها ابنة ملك الروم[١٠٠]، مما يعني أنها عبرت مجازيا علــى أنها «ابنة». فيمكن تصور أن كلمة «ابنــة» الموجودة على الخاتم قد قصد المعنى المجازي نفســه، على غرار الاستخدام المجازي العربي، أي أن ماريا الابنة هي في الحقيقة مارية حفيــدة القيصر. ونعتقد أن الدليل الذي قادنا للاقتناع بهذه الفكرة هو ورود اسم «ماريا" في الأخبار الشيعية. ففي رواية ذكرت خبر ولادة ابن العســكري عليه السلام، ذكر فيها أن ماريا كانــت إحدى الخدم في دار العســكري عليه السلام[١٠١]. وبالرغم من أنه لم يصلنا شيء عن هوية ماريا، فإن اسمها يوحي بأنها تحمل خلفية مســيحية. وكما ذكرنا سابقا احتمالية أن تكون لجارية العسكري عليه السلام البيزنطية عدة أسماء وأحدها ماريا، وباستثناء ماريا القبطية جارية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه يندر ورود اسم ماريا في الأحاديث الشيعية، وهي مفارقة يصعب وقوعها صدفة.

إن النظــر في أفراد الأدلة الســابقة لا يفي للخروج بنتيجــة قاطعة عن أن ماريا هي ذاتها جارية العســكري عليه السلام،[١٠٢] لكن لو نظرنا إليها متضافرة ستكون مقنعة للخروج بهذا الرأي، فخلفيتها المســيحية وكونها سليلة القيصر في القرن التاسع شاهدان على أن ماريا صاحبة خاتم الرصاص هي ذاتها «مليكة».

إعادة النظر في تاريخانية رواية "مليكة"

إن فـــي الخروج من دائرة التقارير البيزنطية يفتح أفق البحث في العوائل الملكية البيزنطيـــة، كما رأينا في هذا المقال، فعلى الرغم من امتزاج شـــخصيتها بالعناصر الإعجازية، فإن قصة «مليكة» لها مضمون تاريخي، فالمقدار المحدود من الجهود المنصبة للبحث حول هذه الشـــخصية كانت محـــدودة في إبراز الجوانب الخارقة للطبيعـــة، متغاضية عن قيمتها التاريخية، فلابد للمرء مـــن أن يضع باعتباره أنه إذا احتفّت بالشـــخصية المدروسة سمات قدســـية، فإنها لا تعطي للباحث العصري عـــذرا في التنكب عن التحقيـــق بحثا عما هو صحيح في الســـيرة التاريخية الذي تشـــتمل عليه هذه الشخصية. في رفضه للسرد التاريخي لشخصية «مليكة»، يشير دان إلى أن نســـبة جارية العسكري إلى النســـل الملكي يشكل نموذجا مثاليا على السردية الأدبية الموجودة في سير القديسين عند الشيعة،[١٠٣] ولكنه يؤكد أن روايتها ليست خالية من الحقائق الملموسة التي تشكل «مصدرا لا يقدر بثمن للمؤرخين المختصين بتاريخ العبودية النســـائية في العصور الأولى للدولة العباســـية»[١٠٤]. بفضـــل التحليل المقارن لما هو موجود في المصادر العربية والبيزنطية، نحن الآن في موضع يؤهلنـــا أن نؤكد أن القيمة الجوهرية للســـيرة الذاتية لـ»مليكة» تحمل

معنى أوسع من الذي أفرزته الدراســات السابقة. يجسد هذا الدليل مسيرة أميرة بيزنطية من أرض أسلافها إلى قلب العاصمة الإسلامية. بمعنى آخر، إن الشهادات المقدمة حتى الآن تصب في صالح الادعاء القائل بأن ما بين أيدينا من معلومات هي في الحقيقة ذات قيمة تاريخية أكثر من اقتصارها على كونها ذات قيمة أدبية. لا توجد إشــكالية في القول بأن مجموع العناصر القدسية سيتم نسجها بناء على ما قد يعتبره المؤرخون نواة تاريخية لحدث ما. إن الجهد العظيم للمؤرخ هو في بنائه الحدث كما وقع، لكن ذلك لا يجب أن يمنعنا من محاولة الكشف عن أكبر قدر من الحقائق من هذه السيرة المقدسة كالتي تحملها سيرة «مليكة».

إن قصة «مليكة» التي بين أيدينا يمكــن تصنيفها على أنها ذات طبقتين: طبقة تاريخية وأخرى قدسية. فالطبقة التاريخية، والتي يقدر لها مهمة حفظ المعلومات التاريخية الأصيلة، تتشــكل من الأجزاء التي يمكن للفــرد أن يجد لها مؤكدات مســتقلة في التراث التاريخي البيزنطي. إن حقيقة تواجد امرأة تنتمي إلى الطبقة الأرســتقراطية البيزنطية في دار الحسن العســكري، أي حفيدة القيصر بارداس، هذه الحقيقة ترجع إلى الطبقة التاريخية. لا يقتصر التصوير الذي قدمته «مليكة» عــن القيصر في كونه دليلاً على انطباقه على ســيرة القيصر بارداس، ولكنه يمثل أيضا تقريرا بيزنطيا عن حجم سلطته العسكرية وموقعه الإداري وأنشطته العلمية، وهذا يشــير بدوره عن درجــة القرب الذي كانت تتمتع بــه «مليكة» من البلاط الملكــي البيزنطي. يجب أن نضع باعتبارنا أنــه حتى كبار المؤرخين العرب من أمثال الطبري والمسعودي يقدمون معلومات محدودة -إن لم تكن سطحية- حول الشــؤون الداخلية للدولة البيزنطية. ربما هذا هو السبب وراء غياب اسم بارداس في السجلات التاريخية العربية المشــهورة (باستثناء ذكر عابر لـ»بتروناس» في أهم مصنفات الطبري، والذي يجمع الباحثين تقريبا أن الطبري قد اشــتبه باسم

بارداس ونقله بتروناس). بالنظر إلى قلة معرفة المؤرخين العرب بأسماء النخب البيزنطية فضلا عن السير الذاتية لها، فإن ورود اسم «ورداس» في التراث الشيعي مضافا إلى التشابه الكبير بين شخصية بارداس وجد «مليكة»، يصبح من غير الممكن رفض وجود رابط بينهما بدعوى الصدفة.

أما الطبقة الثانية التي تحملها القصة وهي الطبقة القدسية، فإنها تميز نفسها بوضوح تبعا لما تظهره، وهنا ينتقل الحديث إلى الجانب المتجاوز للطبيعة والذي من جملة ما يتميز به هو تكرار الأخبار من الأحلام والنبوءات. فعلى سبيل المثال، روي أن «مليكة» قد شاهدت النبي محمد ﷺ يخطبها في المنام من النبي عيسى عليه السلام لابنه العسكري عليه السلام، كما روي أنها قد رأت في أكثر من منام أنها تزور العسكري عليه السلام حتى أمرها في حلمها الأخير بالالتحاق بجيش جدها، وبادعائها أنها خادمة، تمكنت من الالتحاق بالجيش البيزنطي فانتهى بها المطاف في بلاد العباسيين.[١٠٥]

لكي نكوّن فهما عميقا لهذه الطبقة القدسية، لابد أن نمعن البحث في عقيدة الخلاص عند الشيعة، وما توليها هذه العقيدة من أهمية لنجابة الأرحام التي حملت الأئمة عموما والإمام الأخير المُخلّص المنتظر خصوصا. وفقا للروايات المعتبرة، فإن أمهات الأئمة يتم اختيارهن بتدبير إلهي، فإننا نسمع بشكل متكرر في الأحاديث الشيعية عن الرؤى أن بعض الجواري أو أسيادهن (الأئمة عليهم السلام) قد يخبرون (من النبي محمد ﷺ) عن هوية أزواجهن وعن حقيقة أن الجارية «ستلد خير أهل الأرض».[١٠٦] في الغالب، تنتمي أمهات الأئمة إلى عائلات نبيلة [١٠٧] تطبيقا للرواية التي تصرح بأن "الأرحام المنتجبة" تحمل "نور" المخلص المنتظر.[١٠٨] لذلك، فإن الطبقة القدسية في سيرة «مليكة» ضاربة الجذر متوافقة مع القناعات العقائدية الشيعية المتعلقة بأمهات الأئمة. والجدير بالملاحظة هو

وجود توافق بين أصل «مليكة» الملكي والمسيحي، أي الطبقة التاريخية التي يمكن التحقق منها في سيرتها التي روتها بنفسها، وبين سيرتها ذات الطابع المقدس في الاعتقاد الشيعي متمثلة بنجابة أمهات الأئمة، وهذا التوافق يعطي قصة «مليكة» قبولاً عند الجمهور الشيعي.

فيما يتعلق بالطبقة التاريخية من السردية، ما زلنا لا نعلم سبب وكيفية خروج «مليكة» من مسقط رأسها حتى انتهى بها المطاف في بلاد العرب وذلك لغياب الخبر في المصادر البيزنطية، فلا يتبقى أمامنا سوى الخبر المذكور في المصادر العربية عن أنها قد أُسرت في الحرب. لقد شهد العقد الذي كان تحت حكم بارداس عدة معارك من جملتها دازيمون وبوسون، ويحتمل أن «مليكة» قد أُسرت في أحدها. وإذا غضضنا البصر عن العناصر الغامضة والخارقة للطبيعة في السيرة التي روتها «مليكة»، نجد أن هذه السيرة قادرة على بيان أواخر الأحوال التاريخية للعائلة الملكية العمورية. فعلى سبيل المثال، تشير روايتها إلى حدوث زلزال عظيم قد اهتز بسببه قصر القيصر، وقد يكون هذا الزلزال الذي ضرب القسطنطينية في سنة ٨٦٠م، وفي رواية أخرى في سنة ٨٦٢م[١٠٩]. كذلك ذكرت مفصلة تقاليد الزفاف الملكية البيزنطية.[١١٠] في نهاية المطاف، إن هذا المصدر المُهمَل يفتح الأبواب لفهم مغاير عن حقبة عهد بارداس، بكونه تصويرا معاكسا للسردية التي يتبناها المؤرخون البيزنطيون عن حكمه الممتد لعشرة سنوات.

الهوامش

ملاحظة: ترقيم الهوامش العربية من اليمين والهوامش الإنجليزية من اليسار.

(1)See Liz James, “The Role of Women”, in The Oxford Handbook of Byzantine Studies, ed. Elizabeth Jeffreys et al. (Oxford: Oxford University Press, 2008), pp. 643–9; Lynda Garland, Byzantine Empresses: Women and Power in Byzantium AD 527–1024 (London and New York: Routledge, 1999).

(2) See for example Kenneth G. Holum, Theodosian Empresses: Women and Imperial Dominion in Late Antiquity (London: University of California Press, 1989); Alice-Mary Talbot, “Empress Theodora Palaiologina, Wife of Michael VIII”, Dumbarton Oaks Papers 46 (1992): 295–303; Judith Herrin, Women in Purple: Rulers of Medieval Byzantium (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001); James Allan Evans, The Empress Theodora: Partner of Justinian (Austin: University of Texas Press, 2003); Lynda Garland and Shaun Tougher, “EudociaIngerina, Wife of Basil I”, in De ImperatoribusRomanis: An Online Encyclopedia of Roman Rulers and Their Families (2007).

(3) See for instance The Empress Theophano: Byzantium and the West at the Turn of the First Millennium, ed. Adel-

bertDavids (Cambridge: Cambridge University Press, 1995).

(4)On Ibn Bābawayh and his Kamāl al-dīn, see Martin McDermott, “EbnBābawayh”, in Encyclopedia Iranica; Mahmoud M. Ayoub, Redemptive Suffering in Islam: A Study of the Devotional Aspects of Ashura in Twelver Shi’ism (The Hague: Walter de Gruyter, 1978), p. 290; Classical Islam: A Sourcebook of Religious Literature, ed. Norman Calder et al. (London and New York: Routledge, 2012), p. 50.

(٥) وردتنا كذلك نصوص منقحة ومن أبرزها ما جاءنا عن الطوسي ومحمد بن جرير بن رستم الطبري وبألفاظ أخرى، والطبري الشيعي يختلف عن المؤرخ السني الشهير ومفسر القرآن محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب «تاريخ الطبري». للمزيد حول الحديث الشيعي، طالع:

Etan Kohlberg, “Shī‘īHadīth”, in Arabic Literature to the End of Umayyad Period, ed. Alfred F. Landon Beeston et al. (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp. 303–7; Jonathan A.C. Brown, Hadith: Muhammad’s Legacy in the Medieval and Modern World (Oxford: Oneworld, 2017), pp. 123–49.

(٦)لمعرفة السير الذاتية للأئمة الإثني عشر طالع:

Muhammad Hossein Tabatabai, Shi’ite Islam, trans.

Seyyed Hossein Nasr (Albany: State University of New York Press, 1975), pp. 167–90; al-Mufīd, al-Ikhtisās(Qom: Al-Mu'tamir al-ālamī li-alfiyya al-Shaykh al-Mufīd, 1413 AH)

(٧) الإمام الهادي هو الإمام العاشـر عند الشيعة وهو والد الإمام الحسن العسكري عليهم السلام

(8) Ibn al-Bābawayh, Kamāl al-dīnwa-tamām al-niʿma II (Tehran: Dār al-Kutub al-Islāmiyya, 1395 AH), pp. 417–23; al-Tūsī, alGhayba (Qom: Dār al-Maʿārif al-Islāmiyya 1411 AH), pp. 208–14; al-Tabarī, Dalā'il al-imāma (Qom: Biʿthat, 14

(٩) دوايت مارتن دونالدسون (١٨٨٤-١٩٧٦م) مبشر وباحث ومستشرق أمريكي درس تاريـخ المذهب الشـيعي في بلاد فـارس والهند والعـراق. عمل في جماعة التبشير المشيخي لمدة ٢٦ سنة في مدينة مشهد حتى عام ١٩٤٠. طالع:

Gerald H. Anderson, "Biographical Dictionary of Christian Missions", Missiology 27 (1999): 41–5.

(10) Dwight M. Donaldson, The Shiı̓te Religion: A History of Islam in Persia and Irak (London: Luzac& Company, 1933), pp. 218– 22.

(11) Mohammad Ali Amir-Moezzi, "Islam in Iran, vii: The concept of Mahdi in the Twelver Shi'ism," in Encyclopedia Iranica; idem, The Divine Guide in Early Shi'ism: The

Sources of Esotericism in Islam (Albany: State University of New York Press, 1994), p. 108

(١٢) لابـد مـن التأكيد على أن هناك قبولًا عاماً بين بعض المؤرخين على وجود جارية للعسـكري، لكنهم يعتقدون أن أصولها البيزنطية ونسبها لأحد حواري النبي عيسى هو خرافة.

(١٣) Michael Dann, “Between History and Hagiography: The Mothers of the Imams in Imami Historical Memory”, in Concubines and Courtesans: Women and Slavery in Islamic History, ed. Matthew S. Gordon and Kathryn A. Hain (New York: Oxford University Press, 2017), pp. 244–65.

(١٤) نفس المصدر ص.٢٥٤

(١٥) نفس المصدر ص.٢٦٢

(16) Kamal al-Sayyid, “Mother of Mahdī”, Entezāri-Mowʿūd 2 (1380 AH): 237–245 (بالفارسية).

نؤيد في هذه الدراسة ما توجه إليه السيد وسنقدم الأدلة الداعمة لهذا الرأي.

(١٧) هناك عدة أمثلة على الزيجات التي عقدت بقصد التحالف بين حكام بيزنطة وحكام الدول الأخرى، ففي عام ٩٧٢م تزوجت الأميرة ثيوبانو من الأمير الجرماني أوتـو الثاني. كذلك بالنسـبة لـــ مارية حفيدة القيصر رومانوس قد أرسـلت لتتزوج الملك البلغاري بيتر الأول، راجع:

Davids, Empress Theopano; Steven Runciman, The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign: A Study of

Tenth-Century Byzantium (Cambridge: Cambridge University Press, 1988)

وللمزيد حول الزيجات الدبلوماسية التي عقدها حكام الدولة البيزنطية طالع:

Ruth Macrides, "Dynastic Marriages and Political Kinship", in Byzantine Diplomacy, ed. Jonathan Shepard and Simon Franklin (Aldershot: Variorum, 1992), pp. 263–80.

(١٨) بالرغم وجود عدة أخبار عن الدولة البيزنطية موزعة في عدة مصادر عربية تشمل حتى المصادر الحديثية، لابد من الاعتراف بأن المصدر الأساس في دراسات العلاقات العربية البيزنطية كانت عبر البحث في السجلات والنصوص الجغرافية التي كتبها أمثال الطبري والمسعودي والبيروني والحموي وغيرهم. وعليه، فقد تم إهمال مصادر الحديث الشيعية بمعظمها إن لم يكن بأكملها.

لقراءة المزيد حول المواجهات البيزنطية العربية العسكرية والسياسية والحضارية، طالع:

Ernest W. Brooks, "Byzantines and Arabs in the Time of the Early Abbasids", The English Historical Review 15 (1900): 728–47; Hugh Kennedy, "Byzantine–Arab Diplomacy in the Near East from the Islamic Conquests to the Mid Eleventh Century", in Byzantine Diplomacy, ed. Jonathan Shepard and Simon Franklin (Aldershot: Variorum, 1992), pp. 133–43; Nadia Maria El-Cheikh, Byzantium Viewed by the Arabs (Cambridge, MA: Harvard University Center for Middle Eastern Studies, 2004); Jakub Sypiańs-

ki, “Arabo-Byzantine Relations in the 9th and 10th Centuries as an Area of Cultural Rivalry”, Byzantium and the Arab World: Encounter of Civilizations (2011): 465–78.

(19) Amir Mazor, “The KitābFutūh al-Shām of al-Qudāmī as a Case Study for the Transmission of Traditions about the Conquest of Syria”, Der Islam, 84 (2000): 17–45, pp. 22, 37,

يناقش الباحث في هذا الكتاب المشار إليه أن الأسلوب الأدبي الذي تكتب به الرواية «لا يلزم عنه تضعيف وثاقة بعض التفاصيل الأخرى».

(20) al-Hūrr al-Āmilī, Ithbāt al-hudāt, volumes I–V (Beirut: Aʿlamī, 1425 AH), V: 196

فـي هـذا المصـدر المشـار إليه يشـير صاحـب الكتاب إلى نسـب جاريـة الإمام العسكري عليه السلام وأنها ترجع إلى الروم، وهو من مصادر الحديث عند الشيعة يروي مؤلفه الخبر من كتاب لابن شاذان (متوفي سنة ٨٧٤م).

(٢١) سيتم توضيح سبب اختيار هذه الفترة بالذات في الأسفل.

(22) Al-Majlisī, Bihār L: 206. On al-Hādī, see Wilferd Madelung, “Alī al- Hādī”, in Encyclopedia Iranica; Tabātabāī, Shi’ite Islam, 208, 209; Matthew Pierce, Twelve Infallible Men: The Imams and the Making of Shiʿism (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2016), 141-4

(٢٣) لابـد لنا من الإقرار هنا بأن المدة الزمنية المختارة ٢٨ سـنة هي تخمينية، ومع ذلك فهي تلبي الغرض من الدراسة.

(٢٤) ابن بابويه، في كمال الدين الجزء الثاني ص.٤٢٠

(٢٥) نفس المصدر ص.٤٢٢

(٢٦) نفس المصدر ص.٤٢٠

(٢٧) John B. Bury, The Imperial Administrative System in the Ninth Century: with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos (London: Oxford University Press, 1911), pp. 20, 36; The Oxford Dictionary of Byzantium, ed. Alexander P. Kazhdan (Oxford: Oxford University Press, 2005), p. 363.

(28) See for example al-Bīrūnī, al-Athār al-bāqiya (Tehran: Mīrāth-i Maktūb, 1380 AH), p. 360; Ibn al-Faqīh, al-Buldān (Beirut: ʿĀlam al-Kutub, 1426 AH), p. 183; Ibn ʿAsākir, Tȧrīkh madīnat Dimashq, volumes I–LXXX (Beirut: Dār al-Fikr, 1415 AH), XLVII: 353; al-Qazwīnī Āthār al-bilād (Beirut: Dār Sādir, 1998), p. 433; al-Hamawī, Muʿjam al-buldān, volumes I– VII (Beirut: Dār sādir, 1995), IV: 331.

(٢٩) ابنة ولده.

(٣٠) ابن بابويه، في كمال الدين الجزء الثاني ص.٤٢٢

(٣١) نفس المصدر ص.٤٢٣

(32) J. Martindale et al., Prosopography of the Byzantine Empire (PBE) “Theophilus”.

(33) Warren Treadgold, “The Revival of Byzantine Learning and the Revival of the Byzantine State”, The American Historical Review 84 (1979): 1245–56, p. 1249; Juan SignesCodoñer, The Emperor Theophilos and the East, 829–842: Court and Frontier in Byzantium during the Last Phase of Iconoclasm (Farnham: Ashgate, 2014), 305.

(34) Cyril Mango, “When Was Michael III Born?” Dumbarton Oaks Papers 21 (1967): 253–8; Herrin, Women in Purple, 201.

(٣٥) نفس المصدر

(36) Garland, Byzantine Empresses, 100; John Bagnell Bury, A History of the Eastern Roman Empire, from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, AD 802–867 (London: Macmillan Publishers 1912), 154; Herrin, Women in Purple, 214; Rodolphe Guilland, “Les Logothètes: Etudes sur l’histoire administrative de l’Empirebyzantin”, Revue des Etudes Byzantines 29 (1971): 5– 115, pp. 48–9.

(37) Warren Treadgold, A History of the Byzantine State and Society (Stanford: Stanford University Press, 1997),

454–5; Bury, Eastern Roman Empire, 178–9; A. Cameron, The Byzantines (Singapore: Blackwell, 2002), p. 69.

(38) Cyril Mango, "EudociaIngerina, the Normans, and the Macedonian Dynasty", ZbornikRadova 14–15 (1973): 17–27; Ewald Kislinger, "EudokiaIngerina, Basileios I. und Michael III", Jahrbuch der ÖsterreichischenByzantinistik 33 (1983): 119–36; Warren Treadgold, The Middle Byzantine Historians (New York: Palgrave Macmillan, 2013), p. 130. On pro- and anti-Macedonian sources, see Cameron, The Byzantines, 169; Michael Angold and Michael Whitby, "Historiography", in The Oxford Handbook of Byzantine Studies, ed. Elizabeth Jeffreys, John Haldon and Robin Cormack (Oxford: Oxford University Press, 2008), pp. 838–52, esp. 842–3.

تجد في هذه المصادر الإشـارة إلى أنه قد ولد لميخائيل ولد من عشـيقته "يودوكيا إنجرينا" في سـنة ٨٦٥م. كان يروج أن باسـل -شـريك الامبراطور ميخائيل- هو والـد الطفل، بينما تؤكد المصادر المناوئة للمقدونيين أن"ليو" ابن يوديكيا الأول بل حتى أبنائها الآخرين -باسـتثناء ألكسـندر- هم أبناء ميخائيل. ومن ثم فإن القول بأن ليو -وأبناء يودوكيا الآخرين- هو ووالد"مليكة" أمر يسـتحيل زمنيا لأن ليو قد ولد قبل سنة من اغتيال ميخائيل مما يدحض احتمالية أن تكون له ابنة.

(39) Shaun Tougher, The Reign of Leo VI (886–912): politics and people (Leiden: Brill, 1997), 23; Nicetas Da-

vid, The Life of Patriarch Ignatius, ed. Andrew Smithies and John M. Duffy (Washington DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 2013), p. 79.

تجد في هذه المصادر إعلان باسيل امبراطورا في الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٨٦٧م

(40) Tougher, Leo VI, 30–1; Garland and Tougher, "EudociaIngerina"

(41) Barbara M. Kreutz, Before the Normans: Southern Italy in the Ninth and Tenth Centuries (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2011), p. 42; Tougher, Leo VI, 34. S. Tougher, "Imperial Families: The Case of the Macedonians (867–1056)", in Approaches to the Byzantine Family, ed. Leslie Brubaker and Shaun Tougher (Birmingham: Routledge, 2013), pp. 303– 26, esp. 307.

(٤٢) يؤكد كسيلنغر أنه لا توجد إشارة في المصادر التي بين يديه على أنقسطنطين قد تزوج قط.

(٤٣) كان لقب «قيصر» يراد به تمييز الشخص الذي يمثل أعلى سلطة في البلاط بعد الإمبراطور البيزنطي مباشرة، واستمر هذا الحال حتى نهاية القرن الحادي عشر، وبالعادة فقد كان يختص اللقب بابن الإمبراطور، وفي حال عدم وجود ابنا ذكرا مرشحا لخلافة أبيه، حينها تجري عملية التفكير بمرشح آخر لشغل هذا المنصب. ومع أن تعيين القيصر لا يضمن له تولي سدة العرش بعد وفاة

الامبراطور، إلا أنه القياصرة كانوا يشـكلون عنصـرا مقلقا للأباطرة على الدوام.

راجع:

Kazhdan, Dictionary of Byzantium, 363.

Codoñer, Theophilos, 122.

(٤٤) نفس المصدر ص.١١٨

(45) PBE “Bardas5”; Ralph-Johannes Lilie et al., Prosopographie der mittelbyzantinischen Zeit (PMBZ), no. 791.

(46) Bury, Eastern Roman Empire, 144; Patricia Karlin-Hayter, “Icon Veneration: Significance of the Restoration of Orthodoxy?”, in Novum Millennium: Studies on Byzantine History and Culture Dedicated to Paul Speck, ed. Claudia Sode and SaroltaTakács (London and New York: Routledge), pp. 171–83, esp. 172; Theophanes Continuatus, ChronographiaequaeTheophanisContinuatinominefertur Libri I–IV, eds. Jeffrey Michael Featherstone and Juan SignesCodoner (Berlin: Walter de Gruyte, 2015), 213.

(47) Francis Dvornik, “The Patriarch Photius and Iconoclasm”, Dumbarton Oaks Papers 7 (1953): 67 + 69–97, p. 69; Cyril Mango, “The Liquidation of Iconoclasm and the Patriarch Photios”, in Iconoclasm, ed. Anthony Bryer and Judith Herrin (Birmingham: Centre for Byzantine

Studies, 1977), pp. 133–40, esp. 134; Mark Whittow, The Making of Byzantium, 600–1025 (Basingstoke: University of California Press, 1996), p. 154; Patricia Karlin-Hayter, “Methodios and His Synod”, in Byzantine Orthodoxies: Papers from the Thirty-Sixth Spring Symposium of Byzantine Studies, ed. Andrew Louth and Augustine Casiday (Bodmin: Ashgate, 2006), 55–74, esp. 64; Leslie Brubaker and John Haldon, Byzantium in the Iconoclast Era, c. 680–850: A History (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), p. 398.

(48) Treadgold, History, 447; Jeffrey Featherstone, “Emperor and Court”, in The Oxford Handbook of Byzantine Studies, ed. Elizabeth Jeffreys et al. (Oxford: Oxford University Press, 2008), pp. 505–17, esp. 508.

(49) Bury, Eastern Roman Empire, 157; Patricia Karlin-Hayter, “Études sur les deux histoires du règne de Michel III”, Byzantion 41 (1971): 452–96, p. 466.

(50) Garland, Byzantine Empresses, 105; Kazhdan, Dictionary of Byzantium, 363.

(51) Bury, Eastern Roman Empire, 161

(52) PBE “Bardas”.

(53) Francis Dvornik, “Patriarch Ignatius and Caesar

Bardas", BSl, 27 (1966), 17, 19; Kazhdan, Dictionary of Byzantium, 255.

(54) Garland and Tougher, "EudociaIngerina".

(٥٥) ولد أنتيغونوس في ٨٥٤م أو ٨٥٣م أي قد كان عمره عشرة سنوات حينما توفي والده.

PBE "Antigonos 1"; PMBZ, no. 503; Bury, Eastern Roman Empire, 168; Treadgold, Middle Byzantine Historians, 170

(٥٦) بالعودة إلى السيرة التي روتها «مليكة» فإن أباها اسمه «يشوى» أو «يشواز» والذي يماثله في اليونانية إيسوس أو إسوس أو إسس. توثيق وجود هذا الاسم في الدولة البيزنطية في خاتم من الرصاص كان موضعا للنقاش حتى القرن الثامن أو التاسع لصاحبه الذي يبدو أن اسمه كان «اسس» راجع: PBE "Anonymous 347".

(57) Bury, Eastern Roman Empire, 279.

(58) Chas Diehl, "From Nicephorous I to the Fall of the Phrygian Dynasty", in The Cambridge Medieval History, ed. Joseph R. Tanner et al., volumes I–VIII (Cambridge: Cambridge University Press, 1911–1936), IV: 27–48, esp. 46; George Huxley, "The Emperor Michael III and the Battle of Bishop's Meadow (AD 863)", Greek, Roman and Byzantine Studies 16 (1975): 443–50; al-Tabarī, The History of al-Tabarī, ed. and trans. George Saliba, volume XXXV: The History of the ʿAbbāsid Caliphate (Albany:

State University of New York Press, 1989), p. 9; John Haldon, Warfare, State and Society in The Byzantine World 560–1204 (London: Routledge, 2003), p. 175.

(٥٩) لابد من التنويه إلى أن المصادر البيزنطية -وعلى النقيض من رواية «مليكة»- لا تذكر أي خبر عن وجود ابن ثان لبترونـاس وقد يرجع السبب إلى أنه لم يشغل أي دور محوري في الحياة السياسية كأخيه ماريانوس.

(60) Romilly James Jenkins, Byzantium: The Imperial Centuries, AD 610–1071 (Toronto: University of Toronto Press, 1987), 160.

(61) al-Tabarī, The History of al-Tabarī, volume XXXIV: Incipient Decline, ed. Joel L. Kraemer (Albany: State University of New York Press, 1989), p. 168

(62) Treadgold, History, 450

(٦٣) في سنة ٨٥٦م قامت القوات البيزنطية بقيادة بيتروناس بعدة حملات ناجحة على إمارة ميليتن، كما أنه حقق انتصارا تاريخيا في معركة بوسون عام ٨٦٣م تابعه بحملة ناجحة على أرمينيا. راجع:

Bury, Eastern Roman Empire, 278–84; Georgy Ostrogorsky, “The Byzantine Background of the Moravian Mission”, Dumbarton Oaks Papers 19 (1965): 1–18, p. 4; T.E. Gregory, A History of Byzantium (Cornwall: Wiley-Blackwell, 2005), p. 215; Shaun Tougher, “After Iconoclasm (850–886)”, in The Cambridge History of the Byzantine

Empire c. 500–1492, ed. Jonathan Shepard (Cambridge: Cambridge University Press, 2009), pp. 292–304, esp. 297.

(64) Bury, Eastern Roman Empire, 279.

(65) 5al-Tabarī, History, XXXIV, 168.

(66) PBE “Bardas5”.

(67) See for instance Jenkins, Imperial Centuries, 160; Jim Bradbury, The Routledge Companion to Medieval Warfare (London: Routledge, 2004), 14; Whittow, Making of Byzantium, 282.

(68) Jenkins, Imperial Centuries, 160

(٦٩) أصبح بارداس في سنة ٨٥٦م مستشارا للإمبراطور صار قائدا لكل القوات المسلحة وقد رافق الإمبراطور في الحملة على إمارة ميليتين ويعتقد كذلك في معركة دازيمون. شاهد:

Bury, Eastern Roman Empire, 279; Treadgold, History, 451.

(70) Cameron, The Byzantines, 169.

(٧١) للمزيد حول أخبار التحول في ديانة أهل مورافيا وبلغاريا، راجع:

Alexis P. Vlasto, The Entry of the Slavs into Christendom: An Introduction to the Medieval History of the Slavs (Cambridge: Cambridge University Press, 1970); Treadgold, History, 452; P. Sarris, Byzantium: A Very Short Introduc-

tion, (Oxford: Oxford University Press, 2008), p. 82; Maddalena Betti, The Making of Christian Moravia (858–882): Papal Power and Political Reality (Leiden: Brill, 2014); Marius Telea, “Mission and/or Conversion: Strategies of Byzantine Diplomacy”, International Journal of Orthodox Theology 6 (2015): 81–105, p. 96

(٧٢) ابن بابويه في كمال الدين الجزء ٢ ص.٤٢٣

(٧٣) أعاد القيصر بارداس تشييد جامعة القسطنطينية التي بناها ثيوديسيوس الثاني (توفي في ٤٥٠م) وقد دمرت في فترة حكم الهيركوليزيين والقوط. وقد تمثلت عملية إعادة إحياء الجامعة بالقيام بجملة من الإجراءات مثل إدخال مناهج مستحدثة وقيام إدارة جديدة برئاسة ليو الرياضي.

Bury, Eastern Roman Empire, 439.

(74) Genesios, IosephiGenesiiregum libri quattuor, ed. A. Lesmüller-Werner and H. Thurn (Berlin: de Gruyter, 1978), pp. 165-7. L.G. Westerink, “Leo the Philosopher: ‘Job’ and Other Poems”, Illinois Classical Studies 11 (1986): 193–222, p. 194; Treadgold, History, 447; John Duffy, “Hellenic Philosophy in Byzantium and the Lonely Mission of Michael Psellos”, in Byzantine Philosophy and Its Ancient Sources, ed. Katerina Ierodiakonou (Oxford: Oxford University Press, 2002), pp. 139–96, esp. 145; C. Mango, The Oxford History of Byzantium (Oxford: Oxford

University Press, 2002), p. 216. Athanasios Markopoulos, “Education”, in The Oxford Handbook of Byzantine Studies, ed. Elizabeth Jeffreys, John Haldon and Robin Cormack (Oxford: Oxford University Press, 2008), pp. 785–95, esp. 790; Cecily Hennessy, “Young People in Byzantium”, in A Companion to Byzantium, ed. Liz James (Hoboken: Wiley-Blackwell, 2010), pp. 81–92; Athanasios Markopoulos, “In Search for ‘Higher Education’ in Byzantium”, ZbornikRadovaVizantoloskogInstituta 50–1 (2013): 29–44, p. 37.

(٧٥) لقراءة المزيد عن الخصيبي وأعماله، راجع:

Yaron Friedman, “Al-Husayn ibn Hamdân al-Khasîbî: A Historical Biography of the Founder of the Nusayrî-’Alawite Sect”, Studia Islamica 93 (2001): 91–112.

(٧٦) نفس المصدر ص.٣-١٠٣ ، راجع كذلك:

Friedman’s comprehensive study of Nusayrīs history, beliefs and practices, idem, The Nusayrī-ʿAlawīs: An Introduction to the Religion, History and Identity of the Leading Minority in Syria (Leiden: Brill, 2010)

(77) Dann, “Between History and Hagiography”, 244; Amir-Moezzi, “Islam in Iran”.

(٧٨) سيأتي المزيد حول جعفر أخي الإمام العسكري عليه السلام.

(79) Al-Khasībī, Al-hidāya al-kubrā (Beirut: Al-Balāgh, 2002), p. 248

(80) Peter Charanis, The Armenians in the Byzantine Empire (Lisbon: FundaçãoCalousteGulbenkian, 1963), p. 26

(81) Eleonora Kountoura-Galake, “Iconoclast Officials and the Formation of Surnames during the Reign of Constantine V”, Revue des Etudes Byzantines 62 (2004): 247–53, p. 250.

(82) Mango, “EudociaIngerina”, 20.

(83) Tougher, Leo VI, 134; Garland and Tougher, “EudociaIngerina”.

(٨٤) على عكس كلمتي «انجرينا» و»مارتيناكيا»، اسم عائلة «مليكة» – ورداس- لا يظهر بصيغة مؤنثة في روايتها، ومع ذلك، فإن الأسماء المستعارة قد تواجه هذا النوع من التحريفات إذا ترجمت من لغة إلى أخرى. لا توجد قاعدة متعارفة تحكم آلية تحويل كلمة «ورداس»من اليونانية إلى العربية (أو بشكل أدق الأرمينية). بأي حال، لا يمكن أن يرد ذكر هنا اسم «ورداس» بشكل اعتباطي.

(85) Dann, “Between History and Hagiography”, 262; Ibn al-Bābawayh, Kamāl al-dīn, II: 432; al-Majlisī, Bihār, LI: 360.

(86) Dann, “Between History and Hagiography”, 247; Pierce, Twelve Infallible Men, 137.

(87) Dann, “Between History and Hagiography”, 246–51; Amir-Moezzi, “Islam in Iran”.

(88) Ibn al-Bābawayh, Kamāl al-dīn, II: 474–6; al-Khasībī, Al-hidāya, 320; al-Kulaynī, Al-kāfī, volumes I–VIII (Tehran: DāralKutub al-Islāmiyya, 1407 AH), I: 505.

(89) Amir-Moezzi, Divine Guide, 215; Pierce, Twelve Infallible Men, 89–91; Dann, “Between History and Hagiography”, 247.

(90) Ibn al-Bābawayh, Kamāl al-dīn, II: 422; al-Majlisī, Bihār, LI: 9.

(91) Friedman, “Al-Husayn ibn Hamdân al-Khasîbî”, 110.

(92) Al-Khasībī, Al-hidāya, 334, 355, 372

(٩٣) نفس المصدر ص٣٥٤

(٩٤) ولهذا السبب يعتقد بأن المجلسي «يعتبر المجلسي أكثر من جمع الأحاديث بشكل لم يسبقه أحد في عالم الشيعة الإثنا عشرية»

Abdul-Hadi Hairi, “al- Madjlis ī”, Encyclopedia of Islam (EI2), Second Edition, ed. P. Bearman, approvingly quoted al-Khasībī; see, for example, al-Majlisī, Bihār, LI: 25, LII: 68, LIII: 1.

(95) Odilo Engels, “Theophano, the Western Empress from the East”, in The Empress Theophano: Byzantium

and the West at the Turn of the First Millennium, ed. AdelbertDavids (Cambridge: Cambridge University Press, 1995), pp. 28–33, esp. 28.

(96) Donaldson has likewise translated the word “Malīka” as “princess”; Donaldson, Shiʾte Religion, 220.

(97) PBE: “Index of Women”.

(98) PBE “Maria 9”; PmbZ, no. 4743.

(99) PBE “Maria 9”.

(١٠٠) نفس المصدر ص٤٢٢

(101) Ibn al-Bābawayh, Kamāl al-dīn, II: 430; al-Khasībī, Al-hidāya, 357; Dann, “Between History and Hagiography”, 252.

(١٠٢) على سبيل المثال، كان تقديس المسيحيين لمريم العذراء أمرا شائعا، ولكن هذا التقديس لا يعتبر دليلا –بتصريحهم- لإثبات هويتها.

(103) Dann, “Between History and Hagiography”, 254.

(١٠٤) نفس المصدر ص٢٥٧

(١٠٥) ابن بابويه في كمال الدين الجزء ٢ ص١-٤٢٠

(١٠٦) الكليني في الكافي ج١ ص٤٧٧-٤٧٨ كذلك راجع:

Dann, “Between History and Hagiography”, 25

(١٠٧) هكذا تشير الرواية.

(١٠٨) الكليني في الكافي ج١ ص٣٢٣ ، كذلك راجع:

Pierce, Twelve Infallible Men, 138.

(109) Alexander Vasiliev, The Russian Attack on Constantinople in 860 (Cambridge: Medieval Academy of America, 1952), p. 224; Bury, Eastern Roman Empire, 198; Glanville Downey, “Earthquakes at Constantinople and Vicinity, AD 342–1454”, Speculum 30 (1955): 596–600, p. 599.

(١١٠) مـن الواضح أن هذه الرواية تفسـر الكثير مـن التعقيدات التي وردت في السـجلات البيزنطية (مثل سجلات ثيوبانوس كونتينواتوس، وجينيسيوس، وسايمن المجهول) حول الزلزال وتبرز توافقا مع العادات والطقوس البيزنطية للزفاف. إن مشـروع دراسة سـيرة «مليكة» والأدلة البيزنطية هو مشروع شامل مستمر وهذه الدراسة تشكل اللبنة الأولى له.

■ ■ ■

تم نشر المقال باللغة الإنجليزية في
١١ سبتمبر ٢٠١٩ م
ونشرت الترجمة للعربية في فبراير
٢٠٢٤مس